القِيَمُ الجَمَاليّةُ فِي مِيمِيّةِ القَاضِي الجُرجَانِيّ
– دِرَاسَةٌ تَحلِيلِيّةٌ دَلالِيّةٌ –

Aesthetic values in Al-Qadi Gorgani's memet: An Analytical Semantic Study

عامر محمود ربيع [1]

المُلخّص:

هدفت هذه الدّراسة إلى معالجة القيم الجماليّة من النّاحيتين: المضمونيّة/ المحتوى/ الشّكل، اللّتين توافرتا في ميميّة القاضي الجرجانيّ. وقد خلُصت إلى بعض النّتائج، منها: اتّسام لغة القصيدة بالوضوح، وعمق الدّلالة، وكذلك عذوبة ألفاظها، وجمال جرسها. كما جاءت الصّور الفنّيّة، على الرّغم من عدم جدتها، معبّرة عن تجربة الشّاعر الشِّعرية، والشّعوريّة. وقد توسّلت الدّراسة بالمنهجين: التّحليليّ الوصفيّ، الّذي يرصد النّصوص الشِّعريّة الدّالة، ويحلّلها. والمنهج الجماليّ، الّذي يبحث في العلاقة بين العمل الفنّيّ والنّاقد؛ وفق معايير ومقاييس معيّنة، فضلاً عن إحساسه الشّخصيّ بالجمال الفنّيّ. وقد جاءت الدّراسة في: مقدّمة، ومبحثين، الأوّل بعنوان: جماليّات المضمون. والمبحث الثّاني: جماليّات الشّكل، وخاتمة أبرزت أهمّ النّتائج، الّتي توصلّت إليها الدّراسة.

الكلمات المفتاحيّة: القيم الجماليّة، القاضي الجرجانيّ، المضمون، الشّكل، الشِّعر العربيّ القديم.

Abstract

This study aims at dealing with the aesthetic values from two perspectives: content/ tenor and form, which are available in AL -Qadi Gorgani's memet. It concludes with some results, the most important of which are: the clarity of the language of the poem, the depth of connotation, the sweetness of its words, as well as the beauty of its timbre. The artistic images, despite their lack of novelty, express the poet's poetic and emotional experience. The study used two approaches: descriptive analytic, which monitors and analyzes significant poetic texts. And the aesthetic approach, which examines the relationship between the artistic work and its critic according to certain criteria and standards, in addition to his personal sense of artistic beauty. The Study includes an introduction and two chapters under two headings: Content Aesthetics and Form Aesthetics respectively. Together with a conclusion that includes the major results thereof.

Key Words: Aesthetic Values, Al-Qadi Gorgani, Content, Form, Ancient Arabic Poetry

DOI: 10.15849/ZJJHSS.220330.05

[1] أستاذ مشارك، اللّغة العربيّة، أدب ونقد، جامعة جرش، الأردنّ ، تاريخ استلام البحث 2021/012/14، تاريخ قبوله 2022/02/03

© 2022 جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية

المقدّمة:

يشكّل الجمال سواء أكان في المضمون، أم في الشّكل جزءاً أصيلاً من العمليّة الإبداعيّة، والتّذوق الجماليّ ليس مجرّد استحسان لما تقع عليه حواسّ الفنّان، من: صور، وألوان، ونغمات...إلخ. بل استقبال عميق، ودقيق لكلّ ذلك، وهضم للمظاهر الجماليّة؛ الماديّة، والمعنويّة؛ بحيث تصبح جزءاً من نسيجه الدّاخليّ، النّفسيّ، والعقليّ. وقد أخذت هذه الدّراسة على عاتقها دراسة القيم الجماليّة في ميميّة القاضي الجرجانيّ:عليّ بن عبد العزيز (ت 392هـ)، وتحليلها، وبيان دلالاتها النّفسيّة، والعقليّة.

مشكلة الدّراسة: وتكمن في معالجة بعض القيم الجماليّة الّتي انطوت عليها قصيدة القاضي الجُرجانيّ ويمكن تحديدها في الأسئلة الآتية:

1- ما المقصود بالقيم الجماليّة في العمل الأدبيّ؟

2- هل تتحقّق جماليّة العمل الأدبيّ في المضمون، أم في الشّكل، أم فيهما معاً؟

3- بِمَ امتازت ميميّة القاضي الجرجانيّ من ناحِيتي المضمون، والشّكل؟

هدف الدّراسة:

هدفت الدّراسة إلى تجلّية القيم الجماليّة في ميميّة القاضي الجرجانيّ من النّاحيتين: المضمونيّة/ المحتوى، والشّكليّة.

أهميّة الدّراسة:

تنبع أهميّة الدّراسة من كونها الدّراسة الوحيدة – في حدود علم الباحث، واطّلاعه – الّتي عرضت لهذه القصيدة من النّاحيّة الجماليّة؛ المتمثّلة في المضمون، والشّكل. علاوةً على أنّ هذه القصيدة قد حظيت بشهرةٍ واسعة لدى القدامى والمحدثين على حدّ سواء.

منهجيّة الدّراسة:

اقتضت طبيعة الدّراسة، الاتّكاء على المنهجين: المنهج الوصفيّ التّحليليّ، الّذي يرصد النصوص الدّالة ويحلّلها. والمنهج الجماليّ، الّذي يتتبّع النّواحي الجماليّة في النّصّ من ناحيتي المضمون، والشّكل ويجلّيها ضمن معايير ومقاييس المنهج الجماليّ، وذوق النّاقد، وإحساسه الذّاتيّ.

مكوّنات الدّراسة:

وقد جاءت الدّراسة في مقدّمة تناولت: مشكلة الدّراسة، وهدفها، وأهميّتها، ومنهجها. وتمهيد عرض: لمفهوم القيمة لغةً، واصطلاحاً، وارتباطها بالفنّ بصورة عامّة. ومبحثين، الأوّل: بعنوان جماليّات المضمون/ المحتوى فِي مِيمِيّةِ القَاضِي الجُرجَانِيّ. والمبحث الثّاني: جماليّات الشّكل فِي مِيمِيّةِ القَاضِي الجُرجَانِيّ. وخاتمة أبرزت أهمّ النّتائج، والتّوصيات الّتي توصلّت إليها الدّراسة.

الدّراسات السّابقة:

لم يعثر الباحث على أيّة دراسة عالجت هذه القصيدة من أيّ ناحية كانت. أمّا الدّراسات الموازيّة، فهي كثيرة، أفاد الباحث منها، ورصدها في قائمة المصادر والمراجع. وقد تشابهت دراسة الباحث مع بعض الدراسات، ومنها:- على سبيل المثال-: 1-القيم الجماليّة في شِعر عمر النّص، للباحث: عبد الحسن خضير عبيد، مجلّة

©2022 جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية

كلّيّة التّربية للبنات، جامعة الكوفة، مجلّد 18،عدد2007،1م. 2-القيم الجماليّة للطّبيعة الصّامتة في شِعر الطّبقة الثّالثة الجاهليّين، للباحِثَين: فاطمة حميد يعكوب التّميمي، ياسر عليّ عبد الخالديّ، مجلّة جامعة بابل، العلوم الإنسانيّة، مجلّد 23، عدد1، 2015م. وقد اختلفت دراسة الباحث عن سائر الدّراسات الموازية؛ بأنّها دراسة تطبيقيّة جماليّة؛ انصبّ اهتمامها على دراسة قصيدة بعينها.

لقد مجّد الإنسان – منذ القدم- القيم، وجهد للمحافظة عليها؛ لأنّها قوام وجوده، ومصدر حياته، وصاحبته، "وتطوّرت بتطوّره، بدءاً بالنّاموس العقليّ، الّذي ميّز الله به هذا الكائن الحيّ العاقل دون غيره من الكائنات الأخرى، وصولاً إلى القيم الّتي اكتسبها بوساطة الأديان السّماويّة، وبذلك أصبح يؤمن ببعضها، وقد يترك بعضها الآخر؛ إذا لم ينسجم مع ميوله، أو نزعاته، ونزواته أحياناً، أو لعدم قدرته على تطبيقها.[1] فارتباط الإنسان بالقيم ، وتمسّكه بها؛ خدمة له، ومن أجل المحافظة على بقائه، واستمراره في هذه الحياة، ورغبة في التّواصل مع غيره، وديمومة للعلاقة مع الآخرين. ومن هنا، فقد وعى الإنسان – منذ الأزل – قيمة القيم، ودورها في اندماج الفرد مع الجماعة؛ ولذلك مارس القيم كافّة؛ سلوكاً في واقع الحياة، وحرصًا على غرسها في نفوس النّشء.

ويقترب مفهوم القيمة – في الفكر العربيّ- "من بعض المصطلحات القيميّة الحديثة، ولاسيّما في دلالة القيمة، والتّقويم، وما يواكبها من معاني: الاستحسان، والكمال، والغاية، أو الهدف، والغرض."[2] وأمّا القيمة اصطلاحاً، فإنّها تختلف عن المعنى اللّغويّ، فكلمة القيمة كما جاءت في المعاجم ذات بُعد اجتماعيّ؛ من قبيل الثّمن، وأنّ النّقلة من المعنى التّجاريّ الاقتصاديّ إلى المعنى الأخلاقيّ، لا يبدو أنّها تمّت داخل المجال التّداوليّ العربيّ، بل من خلال التّرجمة من اللّغات الأجنبيّة الحديثة الّتي تمّ فيها الارتقاء من المعنى الاقتصاديّ إلى المعنى الأخلاقيّ، فأصبحت ترادف الفضائل قبل أن تحلّ محلها. فمفهوم القيمة، ونظام القيم – كما نستعملها اليوم – حديثان حتّى في اللّغات الأوروبيّة المعاصرة.[3]

وقسّمت القيم حسبما ارتضاه أغلب مَن عرضوا لمشكلة القيم إلى ثلاث قيم: الحقّ، والخير، والجمال، وهناك من يضيف القيمة الدّينيّة قيمة رابعة، ومنهم من يضيف إلى القيم الثّلاث السّابقة؛ القيم السّيكولوجيّة، والقيم التّاريخيّة[4]، وبذلك اختلفت آراء الفلاسفة، والمفكّرين في تقسيم القيم، وأنواعها.

ويرتبط مفهوم القيمة بالفنّ بصورة عامّة؛ لأنّ الفنّان لا يستطيع أن يقرّر- بوعي، أو دون وعي قطيعة تامّة بينه، وبين غيره، وعصره؛ إذ إنّ المادّة الّتي ينفث فيها تعبيره: مادّة مقتطعة من سياق تاريخيّ اجتماعيّ لا يمكن إغفاله، وإهماله. وبذلك تتسلّل قيم معيّنة إلى الفنّ، فتمنح مضموناً لقيمته الأصليّة، وهي قيمة الجمال.[5] الّتي تعني: تجربة فنّيّة تبحث في طبيعة الشّيء؛ لاستنباط القيم الّتي يولّدها الإنسان من فكرة الجماليّ، ممّا يعيشه في

---

[1] بوبعيو، بوجمعة، جدليّة القيم في الشِّعر الجاهليّ رؤية نقديّة معاصرة، ط3، اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، 2001م، ص8.

[2] العوّا، عادل، العمدة في فلسفة القيم، ط1، دار طلاس للدّراسات والتّرجمة والنّشر، دمشق، 1986م، ص35.

[3] الجابريّ، محمّد عابد، العقل الأخلاقيّ العربيّ: دراسة تحليليّة نقديّة لنظم القيم في الثّقافة العربيّة، ط1، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، 2001م، ص54-55.

[4] ينظر: قنصوه، صلاح، نظريّة القيمة في الفكر المعاصر، ط1، دار الثّقافة للنّشر والتّوزيع، القاهرة، 1986م، ص240، 242.

[5] ينظر: المرجع نفسه، ص240، ص242.

© 2022 جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية

واقع مجتمعه بماديّاته، ومعنويّاته، وممّا عاناه نفسيّاً، وروحيّاً، ودينيّاً، وسياسيّاً، وأخلاقيّاً."[1] ومن ثمّ ينبغي دراسة هذه القيم سواء أكان ذلك على صعيد الشّكل، أو المضمون، فالنّقد الجماليّ: هو "نقد للفنّ مبنيّ على أصول علم الجمال؛ يُعنى بدرس الأثر الفنّيّ، من حيث مزاياه الذّاتيّة، ومواطن الحسن فيه، وعلاقة هذا الأثر بشخصيّة صاحبه."[2] كما أنّ النّقد الجماليّ ليس نقداً شكليّاً خالصاً، بل يركّز على شكل النّصّ الأدبيّ، ومضمونه في الآن ذاته؛ لأنّ جماليّة العمل الفنّيّ نتاج تضافر جميع العناصر الشّكليّة؛ مع مضمونه أو محتواه؛ ولهذا فإنّ دراسة الأعمال الفنّيّة ينبغي أن تُركّز على الشّكل الفنّيّ، وجماليات تشكّله، ومضمونه، وتكشف عن القيم المتوافرة فيه، مثل: القيم الدينيّة، والاجتماعيّة، والثّقافيّة...إلخ الّتي تختفي وراء النّسق الفنّيّ الجماليّ، وفقاً لثقافة النّاقد، ورؤيته، وحالته النّفسيّة...إلخ، فعناصر الشّكل، والمضمون تعمل في حركة جدليّة؛ لتقدّم – في نهاية المطاف – العمل الفنّيّ بصورة مثيرة، ومدهشة.

المبحث الأوّل: جماليّات المضمون/ المحتوى في ميمِيّةِ القَاضي الجُرجَانيّ

ثمّة علاقة جدليّة بين الشّكل، والمضمون، فضلاً عن أنّ العمل الفنّيّ نتاج تلاقح بين الاثنين؛ ولذا، فالفصل بينهما لا يستقيم والنّظرة القويمة للعمل الفنّيّ، فالنّظريّات الفنّيّة الحديثة لا تؤمن بتقسيم العمل الفنّيّ إلى شكل ومضمون. وما جاء في هذه الدّراسة، فهو لغايات تحليل النّصّ الشِّعريّ فحسب.

المضمون: هو المحتوى الفكريّ للعمل الفنّيّ، الّذي يضمن إثارة خيال المتلقيّ وانفعاله، وهو نتاج العقل، والذّهن. فالمحتوى، أو المادّة "يتغيّر بلا انقطاع، بهدوء، وبطء، أحياناً، وبقوّة وعنف أحياناً أخرى."[3] وتتحدّد لغة الأثر الأدبيّ، وأسلوبه، وتركيبه، وطابعه الجماليّ، بالتّصوّر، الّذي يكوّنه الفنّان لنفسه عن الواقع، وبالتّجربة الّتي يمتلكها، وبالإيديولوجيا الّتي يعبّر عنها.[4] ولكن هذه المادّة؛ كاللّفظ، والصوّت، والحركة...إلخ، لا تشكّل من تلقاء نفسها محسوساً جميلاً، فالفنّان هو الّذي يتدخل؛ ليحيل المادّة الخامّ إلى مادّة جماليّة، فهو الّذي يطوّعها، ويجلو صفاءها الكامن، ويترجم عن حقيقتها الباطنيّة، وثرائها الحسّيّ.[5] والمحتوى؛ هو الّذي يولّد الشّكل، وليس العكس، ويجيء في بادئ الأمر؛ نظراً لأهميّته، وهذا ينطبق على الطّبيعة، والمجتمع، والفنون جميعاً.[6]

وبالعودة إلى قصيدة القاضي الجرجانيّ، يلحظ أنّها تدور حول موضوع الشّكوى؛ إذ صوّر فيها الشّاعر ما لاقاه من: العُقوق، والجفاء، والعزلة، والانفراد. " تقطر عزّة، وإباء، وخاصّة عزّة نفس العلماء، صوّر فيها نفس العالم الحرّ الّذي يأبى الهوان؛ مُستشعراً كرامته إلى أقصى حدّ، وإنّه ليأبى أن يُرْوَى من منهل قد يُصيبه منه ما يؤذي نفسه، وإنّه ليزدري العالِم، الّذي يلهث وراء أطماعه في الدّنيا، ناسياً أنّ من شأن علمه أن يجعله مخدوماً لا خادماً،

---

[1] مرازيق، ميسون سليمان، القيم الجماليّة في شِعر الغزل الأمويّ– دراسة تحليليّة– رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد، الأردنّ، 2011م، ص3.

[2] غريّب، روز، النّقد الجماليّ وأثره في النّقد العربيّ، ط2، دار الفكر اللّبنانيّ، بيروت، 1983م، ص5.

[3] فيشر، إرنست، ضرورة الفنّ، ترجمة: أسعد حليم، (د. ط)، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، (د. ت)، ص170.

[4] الصّباغ، رمضان، الفنّ والقيم الجماليّة بين المثاليّة والماديّة، ط1، دار الوفاء لدنيا الطّباعة والنّشر، الإسكندريّة، 2001م، ص201.

[5] أبو ريّان، محمّد عليّ، فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة، ط1، دار المعرفة الجامعيّة الأسكندريّة، 1993م، ص95.

[6] عوض، رياض، مقدّمات في فلسفة الفنّ، ط1، جروس برس، بيروت، 1994م، ص61.

©2022 جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية

وسيّداً لا عبداً، وإلّا كان الجهل خيراً منه، ويزدري من يراهم حوله من العلماء صغار النّفوس، الّذين لم يصونوا حرمة العلم، بل دنّسوه ولطّخوه بهوان كبير..."[1]

ويمكن – بعد تأمّل هذه القصيدة – تقسيمها إلى المحاور الآتية:

المحور الأوّل: الأبيات (1–2)

المحور الثّاني: الأبيات (3–8)

المحور الثّالث: الأبيات (9–21)

المحور الرّابع: الأبيات (22–26)

المحور الأوّل (1–2): يقول من [الطّويل][2]

يَقُولــونَ لِي: فِيكَ انْقباضٌ؛ وإنّمـــا ... رَأَوا رَجُلاً عَن مَوقفِ الذُّلِ أَحْجَما

أَرَى النَّاسَ مَـن دَاناهُمُ هَانَ عِنْدَهُم ... وَمَــن أَكْرَمتْهُ عِزَّةُ النَّفْــسِ أُكْرِما

ويحدّث– هنا– عن إحجامه عن مواقف الذّل، والنّأي عن خدمة الملوك، والسّلاطين، وغيرهم، فمن قارب الملوك، والأكابر هان عندهم، فقد قيل: إيّاك والملوك، فإنْ خدمتهم ملّوك، وإنْ جانبتهم أذلّوك. ويرى كذلك أنّ مَن أكرمته عزّة النّفس أُكرما، ومن لم تكرمه عزّة النفس، بأن أوقعته النّفس في الخسّة، والحرص، وملازمة أبواب الملوك، لم يُكرّم في عين الأشراف[3]'ولعلّه – في البيت الثّاني– يستدعي قول دعبل الخزاعيّ؛ إذ يقول من [المتقارب]:[4]

إذا مَا أَهـانَ امْـرُؤٌ نَفْسَهُ ... فَلا أكـرَمَ اللهُ مَـن يُكْرِمُهْ

المحور الثّاني (3–8): حقّ العلم، ويتحدّث فيه عن حقّ العلم على العلماء، يقول:

وَلَمْ أَقْضِ حَــقَّ العِلْمِ إنْ كانَ كُلَّمــا ... بَــدا طَمَعٌ صَيَّــرْتُهُ لِــيَ سُلَّمــا

وَلَمْ أَبْتَذِلْ فـــي خِدْمَةِ العِلمِ مُهجَتِي ... لأخْدِمَ مَــنْ لاقيتُ ، لكــنْ لأُخْدَما

أأشقَـــى بِهِ غَرْســاً، وَأَجْنيهِ ذِلَّةً؟! ... إذاً ، فاتِّبــاعُ الجَهْلِ قَدْ كانَ أحْزَمــا

وَلــوْ أنَّ أهْلَ العِلمِ صَــانُوهُ صَانَهُمْ ... وَلَوْ عَظَّمــوه في النُّفــوسِ لَعَظَّمَــا

ولكنْ أَهَانــوهُ فَهَانـــوا وَدَنَّسُـــوا ... مُحَيَّـــاهُ بالأَطمـــاعِ حتَّـى تَجَهَّما

فإن قلتُ: جَــدُّ العِلمِ كابٍ فإنَّمـــا ... كَبَــا حين لم يُحْــرَسْ حِماهُ وأُسْلِما

يقول يجب ألّا يُتّخذ العلم سلّماً لتحقيق الأطماع، والغايات، والأهواء الذّاتيّة، وإنّما ينبغي أن يكون خالصاً لوجه الله عزّ وجلّ. ولهذا لم يبذل روحه ونفسه في خدمة العلم، وصرفه الأيّام واللّيالي في تحصيله؛ حتّى يصير خادماً لمن هبّ ودبّ، بل لأن يصير مخدوماً؛ إذ إنّ فضل العلم والعالم لا يُعدّ ولا يحصى. وإذا كان تحصيله للعلم؛ ليصير خادماً لا مخدوماً، فقد شقي بالعلم، وعندئذٍ فشأنه شأن من جنى الخسّه والذّلة مع المشقّة الشّديدة

---

(1) القاضي الجرجانيّ، عليّ بن عبد العزيز (ت 392هـ)، ديوانه، تحقيق: إبراهيم سميح صالح، إشراف ومراجعة: إبراهيم صالح، ط1، دار البشائر، دمشق، 2003م، ص30.

(2) المصدر نفسه، 127.

(3) العبيديّ، عبد الله بن عبد الكافي، شرح المضنون به على غير أهله، (د. ط)، دار صعب، بيروت، (د. ت)، ص6.

(4) الخزاعيّ، دعبل بن عليّ (ت 246هـ)، شِعره، صنعه: عبد الكريم الأشتر، ط2، مطبوعات مجمع اللّغة العربيّة، دمشق، 1983م، ص422.

© 2022 جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية

والمحنة العظيمة، ومن ثمّ لم يفد من العلم شيئاً. ويقول – أيضاً– : لو أنّ أهل العلم/ العلماء صانوا العلم، ولازموه تقوىً لله، وطاعةً له، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، واجتناب المعاصي، والحرص على الدّنيا، والطّمع في العاجل ... إلخ؛ لصانهم، وصاروا معظمين موقّرين عند الله تعالى، وعند النّاس؛ أي في الدّنيا والآخرة. ولكنّ كثيراً منهم أهانوا العلم، ودنّسوا وجهه، ومحياه بالأطماع، والحرص على متاع الدّنيا، وبذلك لم يبق لهم منزلة عند الله – عزّ وجلّ – في الآخرة، ولا حرمة عند النّاس في الحياة الدّنيا. ويردّ على مَن اعترض عليه بأنّ سوق العلم الآن راكدة، وحظّه قليل، وذلك؛ لأنّ أهل العلم لم يصونوه، ولم يحفظوه من الابتذال، والامتهان، بل زاد الطّين بلة أن صيّره بعض أهله سلّماً لأطماعهم، ووسيلة لتحصيل المال، والمنصب، والجاه.

المحور الثّالث (9–21): وتحدّث فيه عن صون النّفس عن الأذى، وكلّ ما يشين، وما يُعيب، وعدم النّدم على مافات:

وَمَـازِلتُ مُنْحَـازاً بِعِرْضِيَ جَانِبـاً ... مِـن الذّمِ أَعتدُّ الـصّيانةَ مَغْنَمـا
إِذَا قِيلَ: هَذا مَثْـرَبٌ قُلتُ: قـد أَرَى ... وَلكنَّ نَفـسَ الحُرِّ تَحتَمِلُ الظَّـما
أُنَهْنِهُهـا عَـن بَعـضِ مَا لا يَشِينُها ... مَخـافة أَقْوالِ العِـدَى: فِيمَ أَولِمَـا؟
فَأَصبِـحُ مِـن عَتْبِ اللّئيمِ مُسَلَّمـاً ... وقد رُحْتُ فـي نَفْـسِ الكَرِيمِ مُكَرَّما
وأُقسِمُ مـا غـرَّاه مَـن حُسِّنتْ لَهُ ... مُسـافَرَةُ الأَطمـاعِ إن بَاتَ مُعْدَما
وأَقبِضُ خَطْـوِي عَن فُضُـولٍ كَثيرةٍ ... إذا لم أَنَلْهـا وافِرَ العِـرضِ مُكْرَما
وأُكرِمُ نَفْسِـي أن أُضـاحِكَ عَابِساً ... وأَن أَتلقَّـى بِالمَـديحِ مُذَمَّمـا
ومَا كُلَّ بَـرقٍ لاحَ لِـي يَسْتَفِـزُّني ... ولا كُلُّ مَن في الأَرْضِ أَرْضاهُ مُنْعِما
وكَمْ طَـالبٍ دِيْنِي بِنُعمَـاهُ لم يَصِلْ ... إليهِ ولَـو كانَ الرَّئيـسَ المُعَظَّمَـا
ولكنْ إذا ما اضْطـرَّنِي الأَمْرُ لَمْ أَزَلْ ... أُقلِّـبُ فِكْـرِي مُنْجِـداً ثُمَّ مُتْهِمـا
إلـى أَنْ أَرَى مَـن لا أَغُصُّ بِذِكْرِهِ ... إذا قلتُ: قـد أَسْـدى إلـيَّ وأَنْعَما
وإنـي إذا ما فاتَنـي الأَمرُ لم أَبِتْ ... أُقلِّـبُ كَفِّـي إِثْـرَهُ مُتَنـدِّمـا
ولكنَّه إِنْ جَـاءَ عَفْـواً قَبِلتُهُ ... وأَنْ مـال لم أُتْبِعْهُ هَـلَّا وَلَيْتَمـا

يقول: من شيمي، وطبعي، الابتعاد عن كلّ ما يعيبني، ويشينني؛ ولذا لا أزاحم النّاس أطماعهم؛ حتّى أسلم من ألسنتهم. فالحرّ الكامل، هو الّذي يتحمّل الظّمأ، ومشاقّ الدّنيا، ويصبر على الأذى؛ صوناً لنفسه. بل يترك بعض مالا يشين، ويعيب، مخافة الوقوع فيما يشين ويُعيب/ مخافة أقوال العدى: فيمَ أو لِمَ؟/ وهذا من الورع الشّديد، ونتيجة فعل ذلك يصبح سالماً من العيوب والزّلّات. أمّا الكريم الّذي يتغاضى عن الهنات ويلتمس الأعذار في الهفوات، فإنّ الشّاعر يعظّمه في عينه ونفسه. واللّئيم، فلا يلتمس عذراً، بل يتصيّد العيوب والزّلّات، ولا يترفّع عن الجهالات. ويقول– كذلك–: لا أمشي خلف حظوظ كثيرة، ولا أسعى لاهثاً في طلبها، فإذا لم أنلها، وأنا عزيز كريم، فلا حاجة لي فيها. فالإنسان إذا حصّل من أسباب الدّنيا الشّيء العظيم، دون أن يحفظ عرضه ولم يكرّم نفسه، فهو لئيم خسيس. ومن كرامة نفس الشّاعر عليه – أيضاً– ألّا يضاحك مَن يعبس في وجهه؛ لأنّه لو فعل ذلك لأهان نفسه. وينزّه نفسه – كذلك– عن مدح الرّجل المذموم، أي: لا يمدح إلّا من كان أهلاً له. وينزّهها – أيضاً– عن كلّ من أظهر لها طمعاً، ورغبة في الإنعام، فنفسه عزيزة، لا تقبل العطايا؛ لأنّها قادرة على تحصيل ما يكفيها

©2022 جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية

من النّعم، أو بأنّها لا تقبل العطيّة إلّا ممّن كان أهلاً بأن يعطي، وهو كريم النّفس. ونفسه حرّة عزيزة تصبر على الضّر، والأذى، وتتحمّله، ولا تبيت مهمومة جائرة، تقلّب أمرها إلى أين تتّجه طلباً للغنى، والنّوال، بل تصبر مخافة بأن تنال عطاء لئيم، أو منّ. ويضنّ كلّ الضّنّ بدينه عن نعم أيّ شخص، وإن كان رئيساً معظّماً؛ صاحب شأن في قومه وبلده. فهو ليس ممّن يذلّون أنفسهم مقابل نعمة ينعمها رئيس أو ملك أو ذو شأن؛ حتى/ لا أغصّ بذكره إن قلتُ: قد أسدى إليّ وأنعما/ ولا أندم على شيء فاتني من نعمه. ولكن إذا كان هذا العطاء –عفواً–، دون غاية أو هدف ومن غير مسألة قَبِلَه؛ لأنّ الإنسان إذا قبل شيئاً لطمع، ودنيا فانية؛ يصير ذليلاً، وعبداً لذلك الشّيء.

المحور الرّابع (22–26)

وإنّـــي لَـرَاضٍ عَـــن فَتَـــىً مُتَعَفِّفٍ ... يَرُوحُ ويَغْـدُو لَيْـسَ يَمْلِكُ دِرْهَمَـــا
يَبِيْتُ يُرَاعِـــيْ النَّجْمَ مِنْ سُـوءِ حَالِهِ ... ويُصْبِحُ طَلْقَـاً ضَاحِكَـاً مُتَبَسِّمَـــا
ولَا يَسْـــأَلُ المُثْـــرِينَ مَـــا بِأَكُفِّهِمْ ... ولَوْ مَـــاتَ جُـــوْعَاً غُصَّةً وتَكَرُّمَا
فَكَمْ نِعْمَةٍ كَـانَتْ عَلَـــى الحُرِّ نِقْمَةً ... وكَمْ مَغْنَمَـــاً يَعْتَدُّهُ المَـــرْءُ مَغْنَمَا
ومَاذَا عَسَـــى الدُّنْيَا وإِنْ جَلَّ خَطبُها ... يَنَـال بِهَا مَنْ صَيَّرَ الصَّبْرَ مِعْصَمَا

ويتحدّث فيه عن قناعة الإنسان بالقليل من المال مع عفّة النّفس، وصونها عن ذّل الطّلب والسّؤال. يقول: بأنّه يعجبه الفتى العفيف النّفس، وإن كان لا يملك درهماً واحداً، فصون النّفس وتنزيهها عن ذلّ المسألة، أجدر بالفتى من سؤال النّاس؛ أعطوه، أو لم يعطوه، فالمبيت على الطّوى، رغم سوئه، إلّا أنّه لا يمنع الإنسان بأن يصبح طلقاً/ ضاحكاً/ مبتسماً. أمّا استجداء النّاس، فإنّه يريق ماء الوجه ويذهب بالمروءة؛ ولذا، يجب على الإنسان عدم سؤال النّاس، واستدرار ما بأيديهم من النّعم والفضل؛ حتّى لو مات جوعاً. فكثير من النّعم الّتي يتساهل الأحرار في قبولها، تكون نقمة عليهم؛ إذ يستعبدهم بها من أسداها لهم. فالدّنيا كلها – مهما جلّ أمرها– لا تستحقّ من الإنسان أن يذّل نفسه من أجلها، فقد تُقبل على مَن تحلّى بالصّبر على ما يكره.

المبحث الثّاني: جماليّات الشّكل فِي مِيمِيّةِ القَاضِي الجُرجَانِيّ

يؤكّد النّقاد المحدثون وحدة العمل الفنّي، بمعنى أنّه مضمون/ محتوى/ مادّة / صورة/ شكل، وبذلك يُعدّ عصيّاً على التّجزئة، والتّقسيم. "فالتّعبير الفنّيّ تركيب، لا نستطيع فيه تمييز المباشر من غير المباشر." [1] ولا يصلح للإدراك إلّا إذا استحال إلى شكل؛ بحيث "يصبح بمثابة إملاء صورة معيّنة على مادة معيّنة[2] ، فالفكرة، وأسلوب التّعبير عنها، لا يمكن الفصل بينهما[3]، فالارتباط بينهما جدّ وثيق، ولاسيّما في النّصوص الشّعريّة.

وتأسيساً على ما سبق سيوقف هذا المبحث عند أهمّ عناصر التّشكيل الجماليّ/ المكوّنات الشّكليّة/ في قصيدة القاضي الجرجانيّ، وذلك من خلال: اللّغة، والأسلوب، والصّورة الفنّيّة، والإيقاع الخارجيّ، والإيقاع الدّاخليّ.

---

[1] كروتشة، بنديتو. علم الجمال، ترجمة: نزيه الحكيم، ط1، المجلس الأعلى للآداب، دمشق، 1963م، ص28.

[2] برتليمي، جان، بحث في علم الجمال، ترجمة: أنور عبد العزيز، نظمي لوقا، ط1، دار نهضة مصر، القاهرة، 1971م، ص171.

[3] جراهام، جوردون، فلسفة الفنّ مدخل إلى علم الجمال، ترجمة: محمّد يونس، ط1، الهيئة العامّة لقصور الثّقافة، القاهرة، 2013م، 288.

أولاً: اللّغة

تُعدّ اللّغة عنصراً مهمّاً في بناء النّصّ الشِّعريّ، وتشكيل عالمه الدّاخليّ، والوعاء الّذي يصبّ فيه الشّاعر أفكاره ورؤيته الفنّيّة، وتمثّل اللّغة في الشِّعر المظهر المثاليّ للّغة، الّذي يعتمد على الإيماءات والإشارات غير المباشرة الّتي تخدم غرضاً جماليّاً معيّناً. وتمتاز اللّغة الشِّعريّة بأنّها "انزياح مستمر" عن معايير النّثر. [1].

تمتاز لغة هذه القصيدة بالوضوح والنّأي عن الإبهام، وأمّا على مستوى المفردة، فتتّسم بالابتعاد عن الحوشيّ والغريب ونادر الاستعمال. فالقصيدة– في جوهرها" لغة، وهي إذن، تعني شيئاً، والدّال ليس له هدف إلّا أن يقودنا إلى المدلول." [2]

وكذلك تمتاز بوضوح ألفاظها، وإلفها؛ إذ لا يحتاج معها المتلقّي إلى قاموس لغويّ لمعرفة معانيها والوقوف على دلالاتها، علاوة على أن هذه اللّغة قريبة من نفس الشّاعر، وصادقة في التّعبير عن مشاعره، وأحاسيسه، وعواطفه، وانفعالاته، أضف إلى ذلك أنّها تمثّل تجربته الشِّعريّة والشّعوريّة أصدق تمثيل.

ثانياً: الأسلوب

يُعدّ الأسلوب من أهمّ مقوّمات العمل الأدبيّ، وطبيعة التّجربة الفنّيّة تملي على الشّاعر نوع الأسلوب الّذي ينبغي أن يستخدمه، وقد وظّف الشّاعر أسلوب الحوار الدّاخليّ(المونولوج) حيث مكّنه من التّعبير عن هذه التّجربة الشِّعريّة، والفنّيّة بكلّ صدق، ووضوح.

الحوار الدّاخليّ(المونولوج) هو: لغة المناجاة "أحاديّ الإرسال تُعبّر فيه شخصيّة واحدة عن حركة وعيها الدّاخليّ، في حضور متلقٍّ؛ واحدٍ، متعدّدٍ، حقيقيّ، أو وهميّ، صامت غير مشارك في الإجابة." [3] تنهض هذه القصيدة على هذه التّقنيّة الفنّيّة الّتي منحت الشّاعر التّعبير عن أفكاره الدّاخليّة، وعواطفه، ومشاعره بطريقة غير مباشرة. كما أتاحت للمتلقّي أن يسمع ما دار في أعماق نفس الشّاعر؛ من بوح امتزج فيه الحزن، والأسى، والفرح، والسّرور، وخلجات قلبيّة جسّدت مكنونات الشّاعر، وتقلّبات الحياة، وصراعها من حوله، فجاء النّصّ بمجمله تصويراً لما لاقاه الشّاعر من العقوق، والجفاء، والعزلة النّفسيّة، وهو يرى ركود سوق العلم، وتهافت العلماء على أبواب السّلاطين، والحكّام، ولهثهم وراء الأطماع الدّنيويّة الزّائلة، فهانوا، وهان العلم عندهم؛ لأنهم صيّروه سلّماً لأطماعهم...إلخ.

---

[1] كوهن، جان، بنية اللّغة الشِّعريّة، ترجمة: محمّد الولي، محمّد العمريّ، ط1، دار توبقال للنّشر، الدّار البيضاء، 1986م، ص177.

[2] كوهن، جان، النّظريّة الشِّعريّة (اللّغة العليا)، ترجمة: أحمد درويش، ط1، دار غريب للطّباعة والنّشر، القاهرة، 1999م، ص370.

[3] عبد الوهّاب، محمّد، الحوار في الخطاب المسرحيّ، مجلّة الموقف الثّقافيّ، ع10، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، بغداد، 1997م، ص52.

©2022 جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية

ثالثاً: الصّورة الفنّيّة

وتُعدّ الصّورة الفنّيّة من أهمّ وسائل التّعبير عن عواطف الأديب ومشاعره، وأفكاره ورؤاه؛ نظراً لما تمتاز به من تكثيف وشموليّة[1]وذاتيّة، وموضوعيّة[2]، مشحونة بالإحساس، والعاطفة[3]، وتنتمي إلى عالم الوجدان، أكثر من انتمائها إلى عالم الواقع[4].

وقد توسّل القاضي الجرجانيّ بالصّورة الفنّيّة؛ للتّعبير عن حالته النّفسيّة المأزومة من جهة، وتقديم صورة للواقع المعيش المأزوم من جهة أخرى؛ محاولاً إعادة صياغته جماليّا، وفنّيّاً.

ومن نماذج ذلك قوله:

وَلَمْ أَقْضِ حَــقَّ العِلْمِ إنْ كانَ كُلَّمــا بَــدا طَمَعٌ صَيَّــرْتُهُ لِــيَ سُلَّمــا

شبّه الطّمع بالسُلم؛ لأنّ في كليهما سبباً للحصول على الأشياء، والأغراض. وتشي هذه الصّورة التّشبيهيّة بأنّه لم يتّخذ العلم وسيلة للوصول إلى أغراض الدّنيا، ولم يجعله تابعاً لها وخادماً من أجلها. وكذلك قوله:

أأشقَــــى بِهِ غَرْســاً، وَأَجْنيهِ ذِلَّةً؟! إذاً ، فاتِّبــاعُ الجَهْلِ قَدْ كانَ أحْزَمــا

فقد شبّه العلم بالغرس، بجامع الفائدة، والخير العميم. والمعنى أنّه يستنكر التّعب في سبيل تحصيل العلم صغيراً، ثمّ يجني حصيلة هذا التّعب والجهد ذلّة، وخدمة للآخرين، فإذا كان هذا هو شأن العلم والعلماء، فاتّباع الجهل أحسن حزماً وأكثر صواباً.

وكذا قوله:

وَلــوْ أنَّ أهْلَ العِلمِ صَــانُوهُ صَانَهُمْ وَلَوْ عَظَّمــوه في النُّفــوسِ لَعَظَّمَــا
ولكنْ أَهَانــوهُ فَهَانـــوا وَدَنَّسُـــوا مُحَيَّـــاهُ بالأَطمـــاعِ حتَّـى تَجَهَّما
فإن قلتُ: جَــدُّ العِلمِ كابٍ فإنَّمـــا كَبَــا حين لم يُحْــرَسْ حِماهُ وأُسْلِما

ففي البيت الأوّل يشبّه العلم بالجوهرة الثّمينة الّتي يجب أن تصان، وتحفظ عن عبث العابثين. ولكنّ بعض العلماء دنّسوا هذه الجوهرة، وفي البيت الثّاني يشبّهه بالإنسان ذي الوجه الجميل الحسن، الذي شُوّه لسبب، أو لآخر. وفي البيت الثّالث يردّ على مَن شبهه العلم بالسّوق الرّاكدة. فما كان من قلّة حظّ العلم وركود سوقه إلّا حين لم يحرسه العلماء، ولم يحفظوه من الابتذال والامتهان والتّردّد على أبواب الملوك وأعتاب السّلاطين. وتعبّر هذه الصّور الشِّعريّة عن الحالة المترديّة الّتي وصل إليها كثير من العلماء آنذاك من جهة، وكيف صان القاضي الجرجانيّ علمه من الابتذال، والامتهان، ولم يصيّره سلّماً للأطماع، والأهواء، والأغراض الدّنيويّة التّافهة من جهة أخرى.

وقوله: أيضاً:

ومَا كُلّ بَــرقٍ لاحَ لِــي يَسْتَفِــزُّني ولا كُلُّ مَن في الأَرْضِ أَرْضاهُ مُنْعِما

---

[1] كوهن، جان، النّظريّة الشِّعريّة (اللّغة العليا)، مرجع سابق، ص380.

[2] عبّاس، إحسان، فنّ الشِّعر، ط3، دار الثّقافة، بيروت، (د. ت)، ص92.

[3] لويس، سيسل دي، الصّورة الشِّعريّة، ترجمة: أحمد نصيف وآخرون، مراجعة: عناد غزوان، ط1، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، بغداد، 1982م، ص22،32.

[4] إسماعيل، عزّ الدّين، الشِّعر العربيّ المعاصر قضاياه وظواهره الفنّيّة والمعنويّة، ط3، دار الفكر العربيّ، القاهرة، (د.ت)، ص127.

© 2022 جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية

وهنا يشبّه النّعم، والأطماع الدّنيويّة بالبرق، فحذف المشبّه وأبقى المشبّه به، على سبيل الاستعارة التّصريحيّة، والقرينة الدّالة على ذلك معنويّة، تفهم من معنى البيت وما سبقه من معاني الأبيات السّابقة واللّاحقة أيضاً. والمعنى أنّه لا يلهث وراء كلّ طمع وفضل، ونعم لاحت له من قبل أيّ إنسان، بل لا يقبل – وإن كان لا بدّ من ذلك – إلّا ممّن هو أهل للعطايا؛ كريم النّفس، معطاء من غير مَنٍ، ولا أذىً.

وكذلك قوله:

إلـــى أَنْ أَرى مـــن لا أَغُصُّ بِذِكْرِهِ إذا قلتُ: قـد أَسْـــدى إلـــيَّ وأَنْعَما

وهنا يشبّه سيرة الرّجل الكريم، الّذي لا يمنّ بعطائه، ولا يؤذي بمعروفه، وفضله باللّقمة السّائغة في الحلق الّتي لا يغص الآكل بها، فحذف المشبه به وترك قرينة تدلّ عليه، وهي "أَغصُّ"، على سبيل الاستعارة المكنيّة. والمعنى أنّ اللّئيم يمنّ بعطاياه ويؤذي بفضله، والكريم لا يمنّ إذا أسدى إلى فلان جميلاً وأنعم عليه بمعروف.

رابعاً: الإيقاع الخارجيّ، والدّاخليّ

ويُعدّ الإيقاع – بصورة عامة – عنصراً شِعريّاً مهمّاً، ومن أهمّ المداخل الّتي يلج المتلقيّ من خلالها إلى فنّيّة النّصّ الشِّعريّ، ويرجع إلى "ناحيتين: النّاحية الأولى: ناشئة من تكرار وحدة موسيقيّة معيّنة تنتشر في العمل الفنّيّ كلّه، وتعمل على تشويق القارئ، ودفعه للقراءة، وإثارة حبّ الاستطلاع في نفسه. أمّا النّاحية الثّانية: فهي النّغمة غير المتوقّعة، الّتي لا تنشأ عن التّشابه بين وحدات موسيقيّة متكرّرة، وإنّما تلك الّتي تنشأ من عنصر المفاجأة، أو خيبة الظّنّ"[1] ويتضافر الإيقاع بعامّة مع عناصر العمل الفنّيّ الأخرى في تشكيل جماليّته الّتي تتغيّا المتعة، والتّأثير في المتلقّي. ويتألف الإيقاع – في النّصّ الشّعريّ– من الإيقاع الخارجيّ، والإيقاع الدّاخليّ:

أ- الإيقاع الخارجيّ:

ويتمثّل في الوزن، والقافية. يقول ابن طباطبا العلويّ: "إذا أراد الشّاعر بناء قصيدة مخّض المعنى، الّذي يريد بناء الشّعر عليه في فكره نثراً، وأعدّ له ما يلبسُهُ إيّاه من الألفاظ الّتي تطابقه، والقوافي الّتي توافقه، والوزن، الّذي يسلس له القول عليه. فإذا اتّفق له بيت يشاكل المعنى، الّذي يرومُه أثبته، وأعمل فكره في شغل القوافي بما تقتضيه من المعاني على غير تنسيق للشِّعر، وترتيب لفنون القول فيه، بل يعلّق كلّ بيت يتّفق له نظمه، على تفاوت ما بينه، وبين ما قبله."[2]

وبالعودة إلى قصيدة القاضي الجرجانيّ، يلحظ أنّها قد بنيت على وزن البحر الطّويل، وهو من البحور الشِّعريّة المركّبة، وأكثرها شيوعاً في الشِّعر العربيّ، وأكثرها ملاءمة للموضوعات، ولاسيّما الّتي تتطلّب طول النَّفس؛ إذ يقع في ثمانية وأربعين صوتاً؛ تتراوح بين السّاكن، والمتحرك؛ بحيث تعطي للشّاعر حريّة التّعبير عمّا يجول في خاطره، وذهنه من: أفكار، ومشاعر، ورؤى.[3] ، وقصيدة القاضي الجرجانيّ؛ تندرج تحت غرض الشّكوى، وتنسجم منظومتها الصّوتيّة المتماوجة النّغم مع هذا الغرض، كما أنّ مقاطعها الصّوتيّة المشبعة بفاعليّة الإيقاع المتكرّر

---

[1] العشماويّ، محمّد زكي، فلسفة الجمال في الفكر المعاصر، ط1، دار النّهضة العربيّة، بيروت، 1980م، ص162.

[2] ابن طباطبا العلويّ، محمّد بن أحمد (ت 322هـ)، عيار الشِّعر، شرح وتحقيق: عبّاس عبد السّتّار، مراجعة: نعيم زرزور، ط1، دار الكتب العلميّة، بيروت، 2005م، ص11.

[3] الخريشة، خلف خازر، جماليّة التّشكيل العروضيّ والإيقاعيّ للبحر الطّويل، مجلّة دراسات، العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، مجلّد 14، ملحق 2، الجامعة الأردنيّة، عمّان، 2014م، ص788.

©2022 جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية

تنتقل بسلاسة إلى أذن المتلقيّ، وتنساب معانيها إلى ذهنه بيسر، وسهولة؛ بحيث يشعر أنّ لهذه الموسيقى خصائص المادّة المجسّمة.

ومن الملاحظ – كذلك – أنّ تفعيلات هذا البحر تسير على نحو منتظم، إذ لم ترد فيه الزّحافات غير المستملحة، أو القبيحة، فقد استخدم الشّاعر زحافاً حسناً في تفعيلة (فعولن)، فكانت تأتي كثيراً بصورة (فعول)، ولم تحذف فاء هذه التّفعيلة، فتصير (عولن)، فهذا الزّحاف لم يرد في هذه القصيدة. وأمّا تفعيلة (مفاعيلن)، فكان الشّاعر أحياناً يستخدم "القبض"، فتأتي على وزن (مفاعِلن)، وهذا ورد كثيراً في هذه القصيدة. أمّا زحاف "الكف"، وهو تحويل (مفاعيلن) إلى (مفاعيل)، فلم يرد فيها. كما جاء العروض على ضرب واحد (مفاعلن)، وكذا الضّرب؛ ممّا أحدث نغمة موسيقيّة منسجمة، تلذّ الأسماع.

أمّا قافيتها المطلقة، والمتمثّلة في: " ما بين آخر حرف من البيت إلى أوّل ساكن يليه، مع المتحرك، الّذي قبل السّاكن[1]، وهي: "أَحْجَمَا/ أُكْرِمَا/ سلّمَا/ أُخْدَمَا/ أَحْزمَا/ عَظَّمَا/ جهَّمَا/ أُسْلِمَا/ مَغْنَمَا...إلخ" فتشكّل بنية صوتيّة فاعلة، ومهمّة في جسد القصيدة، ولها جرس موسيقيّ موزون مؤثّر في جلب الانتباه، ولفت الأسماع، فضلاً عن دورها في الكشف عمّا جاش في نفس الشّاعر، وعقله، من: أحاسيس، ومشاعر، وانفعالات شتّى. وقد جاءت ملائمة، ومضطّردة مع الغرض، الّذي رام الشّاعر إيصاله إلى المتلقّي؛ المتمثّل في الشّكوى من بعض العلماء، الّذين هانوا العلم، وجعلوه سلّماً لتحقيق أغراضهم، وأمتعتهم الدّنيويّة.

وفي تخيّر حرف الرّويّ الميم المشبعة؛ حيث تولّد عن هذا الأشباع حرف مدّ (الألف)، تحقيق لهدف الشِّعر، وهو "الغناء، والتّرنّم، وحروف المدّ تصلح لتحقيق هذا الهدف؛ لأنّ الصّوت يجري فيهنّ[2]، وقد تناغمت هذه الموسيقى الشّجيّة، المتولّدة عن هذا الإشباع، مع الموضوع العامّ، الّذي دارت حوله القصيدة، كما امتزجت – في هذه الموسيقى – الانفعالات المفعمة بالأسى، والحزن، ومشاعر الألم، والشّعور بالاغتراب النّفسيّ.

ب– الإيقاع الدّاخليّ:

وينبع من تخيّر الألفاظ، وتوالي الحروف، وتلاؤمها، فهو موجة صوتيّة داخلة: "في صميم البناء الإيقاعيّ للشِّعر، تسير سير الشّاعر، وتردّد صدى أنفاسه، وتلوّن رؤيته بجمال أصدائها، فترسم من خلال نغمها أجمل لوحة شِعريّة. [3] ويتأسّس على أنظمة صوتيّة؛ ناجمة عن ألوان البديع المختلفة، وضروب التّكرار، وأصوات المدّ، والجهر، والهمس...إلخ.

والمتأمّل – في قصيدة القاضي الجرجانيّ – يلحظ بعض الإيقاعات الأخرى غير تلك الإيقاعات المكتسبة من الوزن، والقافية، الّتي تسهم في التّعبير عن تجربة الشّاعر، ومنها:

---

[1] الأخفش، أبو الحسن سعيد بن مسعدة(ت 215هـ)، كتاب القوافي، تحقيق: أحمد راتب النّفّاخ، ط1، مطابع القلم، بيروت، 1974م، ص8.

[2] كمال الدّين، حازم عليّ، القافية دراسة صوتيّة جديدة، ط1، مكتبة الآداب، القاهرة، 1988م، ص74.

[3] الوجي، عبد الرّحمن، الإيقاع في الشِّعر العربيّ، ط1، دار الحصاد للنّشر والتّوزيع، دمشق، 1989م، ص8.

© 2022 جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية

أ- الطّباق:

وهو فنّ أُسلوبيّ شاع على ألسنة الأدباء قديماً، وحديثاً، وهو على رأس المحسّنات المعنويّة، واللّفظيّة، ويعني – في اصطلاح البلاغيّين – "الجمع بين المتضادّين، أي: معنيين متقابلين في الجملة."[1] ، وهذان المعنيان يتنافى وجودهما معاً في شيء واحد، في وقت واحد.[2]

ومن ذلك – في قصيدة القاضي الجرجانيّ:

أَرَى النَّـــاسَ مَـــن دَاناهُمُ عِنْدَهُم وَمَـــن أَكْرَمتْهُ عِزَّةُ النَّفْـــسِ أُكْرِما

فقد أجرى الشّاعر طباقاً بين لفظتي "هَانَ"، و "أَكرَمَتْهُ"؛ ليبيّن الفارق الجليّ بين من أهان نفسه من العلماء في ملازمة الملوك والسّلاطين، وبين من نأى عنهم فأعزّ نفسه وأكرمها، وكذا الحال فيمن رغب عمّا في أيدي النّاس وتعفّف عمّا في أيديهم أكرموه، ومن اقترب منهم ورغب فيما عندهم، تجرّؤوا عليه بالأقوال، والأفعال.

ومن ذلك أيضاً:

فَأصبِـــحُ مِـــن عَتْبِ اللّئيمِ مُسَلَّمـــاً وقد رُحْتُ فـــي نَفْـــسِ الكَرِيمِ مُكَرَّما

فجاء الطّباق بين كلمتي "اللّئيم"، و"الكريم"؛ ليبيّن سلوك اللّئيم الّذي يتربّص العيوب والزّلّات، وسلوك الكريم الّذي يتغاضى عن الهنات ويلتمس الأعذار للهفوات ويترفّع عن الأخطاء. وحتّى يسلم المرء من كلّ ذلك، ينبغي أن يصون عرضه ونفسه، ولا يعرّضها لما يُشين.

وكذلك:

ولكنْ إذا ما اضْطـرَّنِي الأَمْرُ لَمْ أَزَلْ أُقَلِّـبُ فِكْـــري مُنْجِـــداً ثُمَّ مُتْهِمـــا

فجاء في لفظي "منجداً"، و"متهما"؛ ليبيّن صبره واحتماله الضّرّ والحاجة، والأذى، على احتمال عطاء اللّئيم؛ لأنّه يمنّ ويؤذي بعطيّته. فهو يفضل الصّبر على الفاقة، والفقر على عطايا اللّئيم.

وقابل بين "يروح"، و"يغدو"، و"يبيت"، و"يصبح" في قوله:

وإنّـــي لَـرَاضٍ عَـــن فَتَـــىً مُتَعَفِّفٍ يَرُوحُ ويَغْـدُو لَيْـسَ يَمْلِكُ دِرْهَمَـــا

يَبِيْتُ يُرَاعِـــيْ النَّجْمَ مِنْ سُـوءِ حَالِهِ ويُصْبِحُ طَلْقَـــاً ضَاحِكَـــاً مُتَبَسِّمَـــا

ليجعل الفرق جليّاً بين حسن الحال ورقّة العيش ورغد الحياة مع ابتذال النّفس وامتهان العِرض، وبين ضيق ذات اليد والفقر وسوء الحال، مع التّعفّف وصون النّفس، وحفظ العرض. ففي الأولى عبوس وتقطيب وضيق نَفْس، وفي الثّانية طلاقة، وبشاشة وتبسُّم. ويؤكد هذا المعنى الطّباق بين كلمتي "نعمة"، "نقمة" في قوله:

فَكَمْ نِعْمَةٍ كَـــانَتْ عَلَـــى الحُرِّ نِقْمَةً وكَمْ مَغْنَمَـــاً يَعْتَدُّهُ المَـــرْءُ مَغْنَمَـا

فالإنعام الوافر والإحسان الكبير، إذا جاء من لئام النّاس، أفضى إلى الاستعباد والاسترقاق، فالحرّ يبيت على الطّوى ولا يسأل النّاس إلحافاً، وكأنّ هذا البيت تعليل للبيتين السّابقين، وللبيت الآتي، الّذي يليهما؛ حيث قوله:

ولَا يَسْـــأَلُ المُثْـــرِينَ مَـــا بِأَكُفِّهِمْ ولَوْ مَـــاتَ جُـــوْعَاً غُصَّةً وتَكَرُّمَا

---

[1] الخطيب القزوينيّ، أبو زكريّا يحيى بن عليّ(ت739هـ)، الأيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق: محمّد عبد المنعم خفاجيّ، دار الجيل، بيروت، (د. ت)، ج6، ص7.

[2] العاكوب، عيسى عليّ، المفصّل في علوم البلاغة العربيّة، ط1، مديريّة المطبوعات الجامعيّة، حلب، 200م، ص559.

©2022 جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية

ب- التّكرار:

ويُعدّ من الظّواهر الأسلوبيّة الّتي تُعين النّاقد على الكشف عن خفايا النّصّ، وأسراره، والإبانة عن الأفكار الّتي تصطرع في ذهن الأديب ونفسه. وهو عبارة عن تكريرأو تكرار "كلمة، وأكثر باللّفظ والمعنى؛ لنكتة، ونكته كثيرة، منها: التّوكيد...، والتّهويل...، والتّعظيم...، والتّلذّذ بذكر المكرّر...، والتّنويه بشأن المذكور..." [1] ويصور – هذا الأسلوب التّعبيريّ- انفعال النّفس، فاللّفظ المكرر، هو المفتاح، الّذي ينشر الضّوء على الصّورة؛ لاتّصاله بالوجدان. فما يكرّره المتكلّم، هو ما يثير الاهتمام عنده، ويحبّ نقله إلى نفوس مخاطبيه[2]

ومن نماذج ذلك تكرار لفظة العلم أربع مرّات في القصيدة:

وَلَمْ أَقْضِ حَـقَّ العِلْمِ إنْ كانَ كُلَّمـا ... بَــدا طَمَعٌ صَيَّــرْتُهُ لِــيَ سُلَّمــا
وَلَمْ أَبْتَذِلْ فـــي خِدْمَةِ العِلمِ مُهجَتِي ... لأُخْدِمَ مَــنْ لاقيتُ ، لكـــنْ لأُخْدَما
وَلَــوْ أنَّ أَهْلَ العِلمِ صَــانُوهُ صَانَهُمْ ... وَلَوْ عَظَّمــوه في النُّفــوسِ لَعَظَّمَــا
فإن قلتُ: جَــدُّ العِلمِ كابٍ فإنَّمـــا ... كَبَــا حين لم يُحْــرَسُ حِماهُ وأُسْلِما

وقد أفاد التّكرار .. في هذه الأبيات .. : بيان حقّ العلم على العلماء وضرورة حفظه وصونه من الأطماع، وتعظيمه في النّفوس، وعدم جعله سلّماً لتحقيق الأغراض الدّنيويّة التّافهة، وخدمة لأهواء الحكّام والسّلاطين...إلخ. وقد أكّد هذه المعاني من خلال تكرار أسلوب النّفي "ولم أَقْضِ حقَّ العِلمِ/ ولم أَبتذلْ في خِدمَةِ العِلمِ" وكذلك من خلال تكرار أسلوب الشّرط غير الجازم" ولو أنّ أَهلَ العِلمِ صَانوه صَانَهم/ ولو عَظّموهُ – في النُّفوسِ- لعظَّمَا" وتعظيمه في النّفوس؛ عدم جعله سلّماً لتحقيق الأغراض الدّنيويّة التّافهة، وخدمة لأهواء الحكّام، والسّلاطين ...إلخ.

ويلحظ – أيضاً- تكرار (رأى) القلبيّة مرّتين في قوله:

أَرَى النَّــاسَ مَــن دَاناهُمُ عِنْدَهُم ... وَمَــن أَكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْــسِ أُكْرِما
إذَا قِيلَ: هَذا مَثْـرَبٌ قُلتُ: قد أَرَى ... وَلكنَّ نَفــسَ الحُرِّ تَحتَمِلُ الظَّـما

للدّلالة على الاعتقاد الجازم، واليقين بأنّ العالم إذا قارب الملوك وعلية القوم هان عندهم؛ لأنّه سيسير على هواهم ويجاري اعتقادهم. ويعتقد كذلك بأنّ الصّبر على الحاجة، والفقر أجدى بالعالم من ابتذال نفسه وإهانتها أمام أبواب الملوك وعتبات السّلاطين.

وكرّر أسلوب "كم الخبريّة" ثلاث مرّات، وذلك في قوله:

وكَمْ طَــالبٍ دِيْنِي بِنُعمَــاهُ لم يَصِلْ ... إليهِ ولَـو كانَ الرَّئيــسَ المُعَظَّمَــا
فَكَمْ نِعْمَةٍ كَــانَتْ عَلَــى الحُرِّ نِقْمَةً ... وكَمْ مَغْنَمَــاً يَعْتَدُّهُ المَــرْءُ مَغْنَمَا

ليفيد التّكثير. ففي البيت الأوّل يومئ إلى ازدحام نِعَم، وأيادي ذوي الجاه عليه؛ من أجل استرقاقه واستبعاده وجعله طوع أيديهم، ولكنّه يأبى ذلك إكراماً لدينه وعلمه، فمهما فعلوا لم يصلوا إلى مرادهم، وتحقيق بغيتهم. وأمّا

---

[1] ابن معصوم المدنيّ، السّيّد عليّ صدر الدّين (ت 1120هـ)، أنوار الرّبيع في أنواع البديع، تحقيق: شاكر هادي شكر،ط1، مطبعة النّعمان، النّجف، 1969م، ج5، ص345-354.

[2] عليّ السّيّد، عزّ الدّين، التّكرار بين المثير والتّأثير، ط2، عالم الكتب، القاهرة، 1986م، ص136.

البيت الثّاني، فيشي بأنّ العالم الحرّ، وعزيز النّفس، يرى أنّ النّعم نقم، والمغانم مغارم إذا كانت غايتها مصادرة آراء النّاس، والسّيطرة على أفكارهم، وتسخيرها لخدمة دنيا غيرهم.

الخاتمة:

خلصت هذه الدّراسة الموسومة بـ "القيم الجماليّة في ميميّة القاضي الجرجانيّ– دراسة تحليليّة دلاليّة" – إلى مجموعة من النّتائج، منها:

- إن الإحساس بالجمال المعنويّ والماديّ؛ إحساس فطريّ لدى الإنسان، وإن اختلف من شخص إلى آخر؛ تبعاً لثقافته، وفكره، ورهافة ذوقه، ودقّة شعوره.
- يتبدّى الجمال في الأعمال الفنّيّة بعامة في الشّكل والمحتوى معاً؛ إذ يتضافرا، ليقدّما عملاً فنّيّاً غاية في الجمال، ومن ثمّ لا يمكن الفصل بينهما، فبقدر ما يكونان منسجمين، ومتماسكين، ومتناغمين من جهة، ومثيرين لانفعال المتلقّي من جهة أخرى؛ يتجلّى فيها الجمال.
- اتّسمت لغة القصيدة بالوضوح، وعمق الدّلالة، والتّعبير الصّادق عن نفسيّة الشّاعر، علاوة على عذوبة جرسه وإيقاعها السّلس الذي يلذّ الأسماع، ويطرب الآذان.
- جاءت الصّور الشِّعريّة معبّرة عن تجربة الشّاعر الشِّعريّة، والشّعورية، وإن كانت مألوفة، وغير مبتكرة. كما عكست واقع حياة بعض العلماء، الّذين لم يصونوا العلم ويحفظوه من الدّنس والشّبهات.
- جاء الإيقاع الخارجي (الوزن/ القافية)، والإيقاع الدّاخلي (الطّباق/ التكرار) متناغماً مع غرض القصيدة، وخدم المحور العامّ الّذي دار حوله، ولبّى المشاعر والانفعالات المشحونة بالأسى والحزن والألم، والمتمثّلة فيما كان عليه بعض العلماء، الّذين لم يعطوا العلم حقّه، وحفظ محيّاه من الدّنس، والأطماع الزّائلة.

- **قائمة المصادر والمراجع:**

- الأخفش، أبو الحسن سعيد بن مسعدة (ت 215هـ)، كتاب القوافي، تحقيق: أحمد راتب النّفّاخ، ط1، مطابع القلم، بيروت، 1974م.
- إسماعيل، عزّ الدّين، الشِّعر العربيّ المعاصر قضاياه وظواهره الفنّيّة والمعنويّة، ط3، دار الفكر العربيّ، القاهرة، (د.ت).
- برتليمي، جان، بحث في علم الجمال، ترجمة: أنور عبد العزيز، نظمي لوقا، ط1، دار نهضة مصر، القاهرة، 1971م.
- بوبعيو، بوجمعة، جدليّة القيم في الشِّعر الجاهليّ رؤية نقديّة معاصرة، ط3، اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، 2001م.
- الجابريّ، محمّد عابد، العقل الأخلاقيّ العربيّ: دراسة تحليليّة نقديّة لنظم القيم في الثّقافة العربيّة، ط1، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، 2001م.

©2022 جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية

- جراهام، جوردون، فلسفة الفنّ مدخل إلى علم الجمال، ترجمة: محمّد يونس، ط1، الهيئة العامّة لقصور الثّقافة، القاهرة، 2013م.
- الخريشة، خلف خازر، جماليّة التّشكيل العروضيّ والإيقاعيّ للبحر الطّويل، مجلّة دراسات، العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، مجلّد 14، ملحق 2، الجامعة الأردنيّة، عمّان، 2014م.
- الخزاعيّ، دعبل بن عليّ (ت 246هـ)، شِعره، صنعه: عبد الكريم الأشتر، ط2، مطبوعات مجمع اللّغة العربيّة، دمشق، 1983م.
- الخطيب القزوينيّ، أبو زكريّا يحيى بن عليّ(ت739هـ)، الأيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق: محمّد عبد المنعم خفاجيّ، دار الجيل، بيروت، (د. ت).
- أبو ريّان، محمّد عليّ، فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة، ط1، دار المعرفة الجامعيّة الأسكندريّة، 1993م.
- الصّباغ، رمضان، الفنّ والقيم الجماليّة بين المثاليّة والماديّة، ط1، دار الوفاء لدنيا الطّباعة والنّشر، الإسكندريّة، 2001م.
- ابن طباطبا العلويّ، محمّد بن أحمد (ت 322هـ)، عيار الشِّعر، شرح وتحقيق: عبّاس عبد السّتّار، مراجعة: نعيم زرزور، ط1، دار الكتب العلميّة، بيروت، 2005م.
- العاكوب، عيسى عليّ، المفصّل في علوم البلاغة العربيّة، ط1، مديريّة المطبوعات الجامعيّة، حلب، 200م.
- عبّاس، إحسان، فنّ الشِّعر، ط3، دار الثّقافة، بيروت، (د. ت).
- عبد الوهّاب، محمّد، الحوار في الخطاب المسرحيّ، مجلّة الموقف الثّقافيّ، ع10، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، بغداد، 1997م.
- العبيديّ، عبد الله بن عبد الكافي، شرح المضنون به على غير أهله، (د. ط)، دار صعب، بيروت، د. ت.
- العشماويّ، محمّد زكي، فلسفة الجمال في الفكر المعاصر، ط1، دار النّهضة العربيّة، بيروت، 1980م.
- عليّ السّيّد، عزّ الدّين، التّكرار بين المثير والتّأثير، ط2، عالم الكتب، القاهرة، 1986م.
- العوّا، عادل، العمدة في فلسفة القيم، ط1، دار طلاس للدّراسات والتّرجمة والنّشر، دمشق، 1986م.
- عوض، رياض، مقدّمات في فلسفة الفنّ، ط1، جروس برس، بيروت، 1994م.
- غريّب، روز، النّقد الجماليّ وأثره في النّقد العربيّ، ط2، دار الفكر اللّبنانيّ، بيروت، 1983م.
- فيشر، إرنست، ضرورة الفنّ، ترجمة: أسعد حليم، (د. ط)، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، (د. ت).
- القاضي الجرجانيّ، عليّ بن عبد العزيز (ت 392هـ)، ديوانه، تحقيق: إبراهيم سميح صالح، إشراف ومراجعة: إبراهيم صالح، ط1، دار البشائر، دمشق، 2003م.
- قنصوه، صلاح، نظريّة القيمة في الفكر المعاصر، ط1، دار الثّقافة للنّشر والتّوزيع، القاهرة، 1986م.
- كمال الدّين، حازم عليّ، القافية دراسة صوتيّة جديدة، ط1، مكتبة الآداب، القاهرة، 1988م.
- كورتشة، بنديتو. علم الجمال، ترجمة: نزيه الحكيم، ط1، المجلس الأعلى للآداب، دمشق، 1963م.
- كوهن، جان، بنية اللّغة الشِّعريّة، ترجمة: محمّد الولي، محمّد العمريّ، ط1، دار توبقال للنّشر، الدّار البيضاء، 1986م.

© 2022 جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية

- كوهن، جان، النّظريّة الشِّعريّة (اللّغة العليا)، ترجمة: أحمد درويش، ط1، دار غريب للطّباعة والنّشر، القاهرة، 1999م.
- لويس، سيسل دي، الصّورة الشِّعريّة، ترجمة: أحمد نصيف وآخرون، مراجعة: عناد غزوان، ط1، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، بغداد، 1982م.
- مرازيق، ميسون سليمان، القيم الجماليّة في شِعر الغزل الأمويّ – دراسة تحليليّة– رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد، الأردنّ، 2011م.
- ابن معصوم المدنيّ، السّيّد عليّ صدر الدّين (ت 1120هـ)، أنوار الرّبيع في أنواع البديع، تحقيق: شاكر هادي شكر، ط1، مطبعة النّعمان، النّجف، 1969م.
- الوجي، عبد الرّحمن، الإيقاع في الشِّعر العربيّ، ط1، دار الحصاد للنّشر والتّوزيع، دمشق، 1989م.

©2022 جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية